ثنائية الأنا والحبيبة في الشعر الاندلسي في عصر الطوائف/من اعداد ا.م.د. جمعة حسين يوسف الجبوري/جامعة تكريت/ كلية التربية للعلوم الانسانية / م.د. ياسر رشيد حمد البياتي/ جامعة تكريت/ كلية الآداب

مدخل

الميل إلى الجمال فطري منذ خلق الانسان ، والطبيعة والحبيبة هما المصدران الرئيسيان للجمال فلا عجب أن نجدهما يستأثران باهتمام الشعراء عامة وشعراء الأندلس خاصة ، والغالب على الشعر الأندلسي ، بل على الشعر العربي كله الاهتمام الزائد بالنوع الأخير من الجمال وهو الحبيبة ، والحبيبة في الشعر الأندلسي قد تكون المرأة وقد تكون المدينة.

والغالب على شعر شعراء الاندلس في المحبوبة هو اظهار ثنائية انا / الشاعر المعذّب في الحب ، والآخر / المحبوبة التي لا تبالي بهذا العذاب فهذا ابو الفضل البغدادي يقول :

أظنُّ أنكِ ما لاقيتِ ما لقَيتْ قُلوبُ أهلِ الهوى مِنْ جاحِمِ القَلَقِ[١]

هنا نجد الشاعر جمع بين (ما لقيتِ وما لقيتْ) موضحاً تمكنه اللغوي، فجاءت (ما) الأولى أداة نفي و (ما) الثانية اسما موصولاً أفادت الإثبات أي (الذي لقيته)، وهو يريد ان يقول : (انَّ محبوبته لم تلقَ في من وجع الهوى وعذاباته وقلقه مثل الذي لقاه هو) محقّقاً بذلك التضاد المتمثل بثنائية (الأنا / والجبيبة) .

وابن الحداد يقارن بين حسنها وما فعله من هلاكه واحيائه فهو يحيى بجمالها ويهلك به وذلك في قصيدته في الغزل بـ (نويرة) ، قائلاً[٢]:

فإن الحسن قد ولاَّ كِ إحيائي وإهلاكي

فالشاعر هنا جمع بين (إحياء / وإهلاك) في تضاد واضح ، يعبر عن مدى تأثر الآخر في الأنا المتحدثة.

وكثيراً ما يردد الشعراء ثنائية الموت والحياة التي تعبر عن (أنا الشاعر / والآخر المحبوبة)، وذلك في توضيحهم علاقتهم بتلك المحبوبة ، ونجد مثل ذلك في قصيدة أخرى لابن الحداد [٣]:

بربٌ بالكثيب الفرد ام نشـــأُ ؟ معصر في اللثام الورد ام رشأ

باعث الوجد سحر منكِ ام حورٌ قاتلُ الصبِّ عمدٌ منكِ أم خطأ؟

نجد الشاعر في البيت الثاني من القصيدة يتحدث عن حالة (الأنا) وما فعلته به المحبوبة (الآخر) ،وقد جمع بين اكثر من كلمة وضدها في هذا البيت ، في محاولة منه لتصوير حاله التي يمرُّ بها، فنجده يقول : (باعث الوجد) في بدء الشطر الاول ثم يقول : (قاتل الصبِّ) في بدء الشطر الثاني ، فقد جمع الشاعر بين (باعث وقاتل) في ثنائية تمثل الحياة والموت، فالبعث يمثل الحياة والقتل يمثل الموت .

ثم نجد تضاداً ثانياً في هذا البيت فقد جمع بين (عمد / خطأ) في ثنائية اخرى بين مصادر الافعال، فالشاعر بذلك استطاع ان يخلق نغماً موسيقاً داخل البيت الشعري.

وقد يحقق الشاعر ثنائية (أنا / الحبيبة) من جانب آخر بعيد كل البعد عن الجانب السياسي والصراعات الداخلية وغيرها ، إذ نجده يعبّر عنها في موضوعات الغزل والمديح وغيرها، فهو يعبر عن حزنه الشديد(الأنا) وفرح محبوبته(الآخر) في آن واحد، ليجمع بذلك متضادتين في شعره تمثلان ثنائية (الانا والحبيبة)، وقد يتحقق هذا التضاد عند الشعراء في قصائدهم بكثرة ولاسيّما في قصائد الغزل الشكوى والمديح، ((فالشعر لا ينمو إلا في نوع من الجدلية الضدية أو التناقضية)) [٤]، يستطيع الشاعر بواسطتها ان يوصل للمتلقي غايته أو قصده، من ذلك ما وجدناه عند الشاعر ابن الحداد الاندلسي في مقدمة قصيدة له في مدح المعتصم بقوله [٥]:

لعي بذات القُلْبِ افقدَ اضلعي ... قلْباً علـــــيه مـا يَريمُ يرينُ

، هو واحزن مثل ما حَكَمَ الهوى ... لا يستوي المسرور والمحزون

تَذَلُّلي لم يُـــــــــجدِ غَيْرَ تَذَلُّلٍ ... والحُسنُ عِزٌّ للحسانِ مَكينُ

غرْوَ أنْ أَصِلَ الغرامَ بمُعْرِضٍ ... غيْرُ المُحبِّ بما يدانُ يدينُ

فالتضاد المتمثل بـ (الأنا/ والحبيبة)،تحقق هنا من جانب الغزل والشكوى في آنٍ واحد من حبيبته (ذاتِ القُلبِ) – بضم القاف أي صاحبة السوار– التي غلبَ هواها قلبَه فلم يعد قادراً على امتلاكه ، فتجدها مسرورةً لاهيةً فرحةً غيرَ مكترثةٍ لأمره وهو محزونٌ

وذليل ، ثم يقول فلا غرابة من ذلك فهي لا تفي بدينها ولا ترحم ابداً ، ، في صورة شعرية رائعة تناول فيها الشاعر الجوانب الايجابية التي تخصه (الأنا) ، والجوانب السلبية التي تمثلت لدينا هنا بالحبيبة (الآخر)، فالصورة الشعرية ((لا تستغل الترابطات والاستجابات الايجابية فقط ، وإنما تركز أيضاً على الاستجابات السلبية)) [٦]، والشاعر بتركيزه على هذه الجوانب استطاع ان يحقق التضاد بثنائية(أنا والحبيبة) في هذا المقطع من القصيدة .

وقد تكون الحبيبة من الماضي الأليم ، وكان لذلك الماضي أثره في شعر الشعراء، فقد فطر الإنسان على تقديس الماضي مهما كان ذلك الماضي أليمًا، ولعل السبب في ذلك هو ما يؤول اليه حال الانسان بعد تقادم الزمن به ، فيحمله الشوق الى الماضي الذي كان يعيشه ومتعلق به فكيف واذا كان ذلك الماضي جميلاً مؤنساً ، فلاشك ان المرء سيكون اكثر تعلُّقاً وارتباطاً وحباً وعشقاً لأيامه الخوالي ، ولكن يبقى ذلك الماضي شيئًا من الذكرى التي يحن إليها الإنسان على كل الأحوال، فذلك الماضي لن يعود ابداً ، لذا نكاد نجد ان ثنائية (أنا/ الحاضر ، والحبيبة / الماضي) تمثل الموضوع الابرز ربما عند الشعراء ، فهم يصورون ويقارنون بين ماضيهم وحاضرهم ، ويجدون في ذكريات الماضي السعيد مجالا لشعرهم حيث يتذكرون ما اغتنموا من سعادة، وما نعموا به من متعة بين الأحبة وجمال الطبيعة لا سيما بوجود الحبيبة ، فتهيج عواطفهم بهذه الذكريات ، وهذا ما

يحمل الشعراء الى الحنين لماضيهم، واذا كان ذلك الماضي جميلاً مؤنساً فلاشك ان المرء سيكون اكثر تعلُّقاً وارتباطاً وحباً وعشقاً لأيامه الخوالي لذا نجدهم ذهبوا يعرضون علينا صوراً لماضيهم، جعلتنا نشاركهم سرورهم بها وألمهم لذهاب عهدها، كيف وإذا كان ذلك العشق، وذلك الحب صادرا عن إنسان مرهف الحس، شاعر كابن زيدون(**٤٦٣هـ**) فلا شك أن التأثر يكون في هذه الحال أكثر صدقًا، وأبهى جمالا، واعمق دلالة، ولابن زيدون قصائد كثيرة حافلة بكثيرٍ من الثنائيات المتضادة التي تمثل (الماضي والحاضر)، لكننا اخترنا نونيته الشهيرة في هذا الموضع كنموذج يمكن الاستشهاد به، وأول ما يطالعنا في نونية هو وصفه للحاضر الأليم، وتألمه على الماضي الجميل، ويعبر عن كل ذلك من خلال أبيات تقطر وفاء وحبًا وتحسراً من قبل (الأنا / الحاضر على (الآخر) الحبيبة/ الماضي الجميل)، الذي كان يعيشه في عهدها ، وذلك بقوله[٧] :

أضحى التنائي بديلاً منَ تدانينا وناب عن طيبِ لُقيانا تجافينا

هنا يستهل الشاعر(الانا) قصيدته بالتوجع والتحسر على ما صارت إليه حاله فقد تغيرت من قرب بينه وبين محبوبته (الآخر) إلى بعد ونأي يتزايد مع الأيام، فقد تحول القرب (تداني) بعدا (تنائي) وصار اللقاء جفاء (لقيانا تجافينا) وهو أمر يُشقيه ويعذبه، كما نجد الشاعر قد استخدم ألفاظا جزلة في التعبير عن مدى وطول البعد وقوة الشوق ، حيث استخدم ألفاظاً ذات حروف ممدودة يمتد فيها النَفَسُ ليعبر عن ألمه ونجد ذلك في جميع ألفاظ البيت الأول، فهو يقول إن التباعد المؤلم بينه وبين محبوبته أضحى هو السائد

بعد القرب الذي كان ، وقد حل مكان اللقاء والوصل الجفاء والهجر، محققاً هنا صورة بيانية جميلة ممثلة بالطباق بين(التنائي والتداني"تدانينا") وبين(لقيانا وتجافينا)، وعلى هذا استمرَّ في البيت الثاني من هذه القصيدة وذلك بقوله:

ألاّ وَقَد حانَ صُبحُ البَينِ، صَبّحَنا حَيْنٌ، فَقَامَ بِنَا للحَيْنِ نَاعِينَا

فالصبح رمز التواصل والبقاء على الحب ، قد تحول إلى معنى الفناء، والموت، ولعل الشاعر على ما يبدو قد وفق في توظيف الألفاظ الدالة والمعبرة عن تجربته الحزينة، حيث استخدم ألفاظًا تعضِّد تلك التجربة الصادقة مثل: البين، والحين، ولعل مما ساعد على تأجيج تلك العاطفة، توظيفه للُّغة توظيفا غير مباشر، وغير حقيقي، عندما اضاف الصبح للبين، مع ما بين المفردتين من مفارقات، وذلك من أجل متابعة الفكرة التي تسيطر على هذه القصيدة ، والتي يتحدث الشاعر من خلالها عن مدى الحرقة، والألم اللذين أصاباه في فقدان محبوبته، حتى أوشك على الهلاك ، معتمدا في ذلك على الصورة البيانية الرائعة التي تمثلت بالجناس بين (صبح: صبحنا،) والجناس بين، (البَيْن: الحَين) ومثل ذلك ما نجده في قوله ايضاً:

وَقَدْ نَكُونُ، وَمَا يُخشَى تَفَرّقُنا فاليومَ نحنُ، ومَا يُرْجى تَلاقينَا

فقد جمع بين الكلمات المتضادة المتمثلة بـ(التفرق) الذي مثل حالة الألم والحزن لدى الشاعر فهو يحن الى الماضي الذي كان يخشى فيها الفراق عن محبوبته و(التلاقي) الذي يمثل الأمل عنده فهو هنا في الوقت الحاضر يحن الى

ذلك الماضي الجميل، محققا بذلك ثنائية الماضي والحاضر ، مستخدماً الطباق بين (تفرقنا وتلاقينا)، ثم يستمر على ذلك ليوضح لنا اكثر هذه الثنائية بقوله :

مَنْ مبلغُ الملبسِينا، بانتزاحِهمُ حُزْناً، معَ الدهرِ لا يبلى ويُبْلينَا

أن الزمان الذي ما زال يضحكنا أنـــــسا بقربهم قد عاد يبكينا.

نجد الشاعر هنا قد حقق ثنائية (الأنا والآخر) / الماضي والحاضر، فالحزن العميق الماضي الذي لا يبلى ، هو نفسه الحزن الذي سوف يبليه ، ومما يدل على شدة معاناته انه أخذ يطلب من أي أحد أن يبلغ أولئك الذين ألبسوه هذا الثوب؛ ثوب الحزن الدائم، المتجدد وابتعدوا عنه(ويقصد هنا الواشين الذين فرقوا بينه وبين محبوبته) إن هذا الحزن ملازم له لا يفارقه حتى يهلك، فهذه ثنائية متضادة واضحة بين الماضي / الآخر والحاضر/ الأنا.

ونجد مثل هذه الثناية ايضا في البيت الثاني بقوله(مازال يضحكنا/ قد عاد يبكينا) وأن ضحكه قد تحول إلى بكاء دائم، و أن الزمان الجميل السابق والذي ملأ حياتنا أنسا، وحبورا، وسرورًا.. قد تحول، وتبدل.. فهو اليوم يبكينا، ويحزننا، وكأننا به وقد وصل به الضعف درجة يستعطف أولئك الواشين أن يرقوا لحاله، وحال محبوبته وأن يتركوهما وشأنهما. فالشاعر حاول ان يظهر التوجع والتحسر والألم الذي حل به مستعملا صورا بيانية جميلة ، منها تشبيهه سيطرة الحزن على نفسه باللباس، أو بثوب يلبسه ويكسو

جسمه، لا يقدَمُ ولا يَبْلَى، بل هو يُبْلِيهِم هُمْ، ويكون سببا في فنائهم، وموتهم. أما الغرض من الاستفهام في البيت فهو إظهار الحزن والتوجع.

كما شبه الشاعر الزمان بإنسان مرح يضحك، ويسلي، وهو على سبيل الاستعارة المكنية، كما يوجد بين (يضحكنا ويبكينا) مقابلة، محققاً كل ذلك بجمعه لثنائية الماضي والحاضر في آن واحد ، ومثل ذلك ما نجده في قوله :

غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغص فقال الدهر: آمينا

فقد جمع بين الماضي (غيظ العدا – فدعوا) والحاضر (فقال الدهر: آمينا)، اذ نجد أن الشاعر يستمر في إرسال رسائله إلى محبوبته وإلى مستمعيه.. فيقول: بأن عذاله قد حنقوا عليه وعلى محبوبته لما بينهما من صفاء، وود، ومحبة، وأن الدهر قد استجاب لدعائهم وحقق لهم ما أرادوا من وقيعة بينهما فأصابهما الحزن والألم، وتشبيهه للدهر بالإنسان على سبيل الاستعارة المكنية(فالمشبه به محذوف)، وهذا تشخيص في غير محله، لأن الدهر هو الله.

ومثله قوله [٨]:

فَانحَلّ ما كانَ مَعقُوداً بأَنْفُسِنَا وَانْبَتّ ما كانَ مَوْصُولاً بأَيْدِينَا

فقد جمع بين (انحل و انبت) من جهة، و(ما كان معقودا و ما كان موصولا) من جهة أخرى، محققاً بذلك ثنائية الماضي والحاضر ، فالعذال الذين ساءهم ما كان عليه الحبيبان من وفاق، وصفاء، ومودة..، فكان نتيجة ذلك كله أن

تفرقنا، وتباعدنا، وانفرط عقد محبتنا، وما كان بيننا من وئام، واتفاق، حيث لم يكن يخطر ببال أحد منا أن يأتي هذا اليوم الحزين، الذي نفترق فيه فراقًا لا يرجى من ورائه لقاء، أو وصال ، كما يوجد ترادف بين معقود: موصول، كناية عمّا كان بينه وبين محبوبته من حميمية الارتباط.

ومثل هذه الثنائيات كثير في قصيدته هذه :

حَالَتْ لِفقدِكُمُ أيّامُنا ، فغَدَتْ سُوداً، وكانتْ بكُمْ بِيضاً لَيَالِينَا

جمع بين البياض والسواد ، في محالة منه لوصف حال ايامة الحاضرة التي أصبحت سوداء بعد أن كانت الليالي عنده في الماضي بيضاء كناية عن تواصله المستمر مع محبوبته التي أنارت لها لياليه ، فقد كان كالسر في الليل الذي لا يعرفه سواهما هو ومحبوبته يستمر حتى بزوغ نور الفجر ، فيعبر عن ذلك بقوله :

سِرّانِ في خاطِرِ الظّلماءِ يَكتُمُنا حتى يكادَ لسانُ الصّبحِ يفشينَا

ويستمر الشاعر على هذا الوصف الرائع في مقارنته بين الماضي الجميل والحاضر المرير ، فيصف ذلك الحب المنهل العذب الذي مهما شرب منه يبقى ظمآن دائما، وذلك بقوله :

أمّا هواكِ ، فلمْ نعدِلْ بمَنْهَلِهِ شرْباً وَإنْ كـانَ يُرْوِينَـا فيُظمِينَا

وهكذا يستمر الشاعر في وصفه لحاله ،بين الماضي والحاضر في ثنائية واضحة المعالم هيمنة على بنية القصيدة بمجملها ن حتى نجده يحاول التخلص الى خاتمة قصيدته

هذه بأسلوب التمني بالبقاء والدوام على العهد والتواصل وبقاء الماضي على حاله وتغيير الحاضر المرير فيقول لمحبوبته :

دومي على العهدِ ، ما دُمنا مُحافِظةً فالحرُّ مَنْ دانَ إنْصافاً كما دينَا

الغرض من فعل الأمر دومي هو الاستعطاف والرجاء واستمالة محبوبته ولذلك يدعوها في استعطاف ان توفي بعهدها معه لأنه وفي به وحافظ عليه وشيمة الاحرار الوفاء بالعهد وهي منهم حتى لا يكون لأحد عليه فضل وهكذا يستمر بقوله(٩):

فَما استعضــنّا خَليلاً منكِ يحبسُنا ولا اســتفدنا حبيبًا عنك يثنينا

أبْكي وَفاءً وَإنْ لم تَبْذُلي صـــــلَةً فَالطّيفُ يُقْنِعُنا، وَالذّكرُ يَكفِينَا

ثم يختم قصيدته هذه بأنه ينتظر من محبوبته جواباً يشفع له في حاله هذه وينقذه من حزنه وأساه وألمه ، ولطالما كانت يدياها كانت تنقذه في كناية عن تواصلها المستمر والدائم معه في الماضي(١٠):

وَفي الجَوَابِ مَتَاعٌ إنْ شَفَعتِ بهِ بيضَ الأيادي التي ما زِلتِ تُولينَا

عيلكِ منّا سَلامُ اللّهِ ما بَقِــيَتْ صَبَابــَـةٌ بِكِ نُخْفِيهَا ، فَتَخْفِينَا

نجد الشاعر هنا في البيت الاخير لا ينسى أن هذا كلَّه قد أصبح من الماضي الذي لن يعود فيرسل لها سلاما يبقى دائماً ما بقيت لديه بقية من حب نحوها ، وهو باستخدامه المقابلة بين(نخفيها فتخفينا) يودع محبوبته وفي نفسه ذلة وانكسار وحسرة على الماضي، في ثنائية واضحة استغرقت بنية القصيدة بمجملها تمثل ثنائية الـ أنا/ الماضي و والآخر /الحاضر، فلقد نجح الشاعر في نقل أحاسيسه ومشاعره إلى لوحة فنية متشعبة بالفكرة المنبثقة من الذات المتحدة بالموضوع ، فليس هناك فرق بين ما يشعر به من ألم وشوق وما يظهره من بكاء وانكسار، على ما يبدو.

وقد لا تكون الحبيبة أماً أو زوجة أو ابنة ، بل قد تكون مدينة ، فقد كان للمدن فقد ذكرنا إن من أهم مصادر الجمال إلى جانب المرأة الطبيعة ، والطبيعة تتمثل في المدن ، فقد وجد عند الاندلسين رثاء المدن الى جانب الى جانب رثاء الشخصيات العظيمة[١١]، ((وقد فاق الاندلسيون المشارقة في رثاء الممالك البائدة لحبِّهم الصادق لوطنهم ، وشغفهم العظيم بجمال طبيعته وعمرانه ، وكان يشجيهم أن يروا ديارهم بأيدي الغزاة الغرباء ، تسقط بلداً إثر آخر فيبكون عليها ويتفجعون لها)) [١٢] ،وكما هو معروف عند الجميع جمال طبيعة الأندلس الذي غنى به الشعراء في شعرهم ، فكيف لأحد ما بعد ذلك أن نتعجب إن وصف الشعراء المدينة بالحبيبة وجعلوا فراقها كفراق أعز الناس عندهم وهو الحب ومثل ذلك قول الإلبيري في قصيدة له قاله رحمه الله في خراب إلبيرة بسبب الفتنة البربرية سنة

٤٠٠هـ ،ثم(عَمرت غرناطة التي كانت صغيرة ومغمورة)[١٣]، قال في مقدمتها وهو يتحسر على ضياع مدينة "إلبيرة " [١٤]:

يضيع مفروضٌ ويُغفلُ واجبٌ وإني علـــــى اهل الزَّمان لعاتبُ

أتندبُ أطلالَ الـــبلادِ ولا يُرى لإلبيرة منهم على الارض نادبُ

على أنها شمس البلاد وأُنسُها وكلٌ سواها وَحشةٌ وغَـــــــياهبُ

بهذه الافتتاحية بدأ الإلبيري قصيدته هذه في ندب ألبيرة ، فهو يعتب على أهل الزمان من الكتاب والشعراء الذين وقفوا في ندبهم الأطلال وذكرها ولم يذكر احدٌ منهم إلبيرة وهم بذلك قد أضاعوا الفرض واغفلوا الواجب ، فهي شمس البلاد وانسها وكلٌ شيء سواها يكون موحشاً ومخيف، وعلى هذا يستمر الشاعر في قصيدته، محاولاً التذكير بأهمية هذه المدينة وفضلها على الناس فيذهب الى تعداد ذلك بقوله [١٥]:

وكم من مجيب كان فيها لصارخ تجابُ الى جدوى يديه السباسبُ

وكم من نجيبٍ أنجبته وعـــالم بأبوابهم كانـــــــت تناح الركائبُ

وكم بَلَغت فيها الأماني وقُضِّيت لصبٍّ لبنـــــــــاتٌ بها ومآربُ

وكم طلعت منها الشموس وكم مشت على الارض اقـــمار بها وكواكب

وكم فرست فيها الضباء ضَراغماً وكم صرعت فيها الكُـــماةَ كواعبُ

فالشاعر هنا يستخدم (كم الاستفهامية) التي تفيد التقرير، في محاولة منه الى التوكيد والإفهام والى التذكير بفضل هذه المدينة ،وهو اسلوب استعمله العرب منذ الجاهلية، ويقول ابن قتيبة: «**ومن مذهبهم التكرار، إرادة التوكيد والإفهام**» [١٦] فليس غريباً على العرب بل كان عادة معرفة عندهم ، ((فعلى سبيل التقرير والتوبيخ قول محمد بن مُناذر الصُبَيري:

كمْ وكمْ كم كمْ وكمْ كم كمْ قال لي: أنجز حر ما وعد

المعنى: قال لي كثيراً: إنّ الحُرّ الكريم مَن وَفَى بوَعدِه.)) [١٧]، ولعل هذا ما اراده الالبيري هنا في تكراره لكم الاستفهامية في محاولة منه الى التذكير بالماضي وما آلت اليه الامور في الوقت الحاضر وهي الفكرة الرئيسية التي بنى عليها قصيدته، وبعد ذلك ينتقل مباشرة الى الجزء الثاني من الثنائية وذلك بقوله[١٨]:

لعهدي بها مُبيضَّةَ الَّليل فاغتَدَت وأيامها قدْ سوَّدتها النَّوائبُ

تظهر لنا هنا ملامح الثنائية المتضادة (أنا /الماضي والحبيبة (إلبيرة)/الحاضر)، فهذه المدينة التي كانت مبيضة الليل كناية عن البهجة والاضواء والعلم الذي كان فيها ، قد حولتها النوائب وقلبت ايامها الى سوادٍ دامس ، وعلى هذا يستمر قائلاً [١٩]:

وما كان فيها غير بـــشرى وأنعمِ فلم يبقَ فيها الآن إلا المصائبُ

غدتْ بَعدَ ربَّات الحجال قصورُها يباباً تُغاديها الصِّبا والجنائبُ

فآه ألوفا تقتضي عدَدَ الحَصـــا على عهدها ما عاهدتها السحائبُ

فالشاعر يحاول باستخدامه الافعال (ما كان فيها / في الماضي، ولم يبق فيها / في الحاضر) في البيت الاول، التي أشار فيها الى الآخر/ الحبيبة المتمثلة بالمدينة إلبيرة ، ثم يستخدم الفعل الافعال (وغدت ، وتغاديها) فقد اصبحت قصورها العامرة خراباً، ثم في البيت الثالث يُظهر الشاعر مدى حسرته وألمه باستعماله لفظة (آه الوفا) في دلالة على ألمه ووجعه وتحسره على "إلبيرة" فيصرخ بـ (آه الوفاء) لها ولعهدها الجميل، مؤكداً على فكرته الثنائية (الماضي/ الآخر و الحاضر/ الأنا) ، وعلى هذا يستمر الشاعر في وصفه حال البيرة وما آلت اليه هذه المدينة التي كانت فخراً بعلمها واعلامها وعلمائها الذين تحدّث عنهم في مقدمة قصيدته هذه ، حتى نراه يقول :

عجبت لما أدري بها من عجيبةٍ فيا ليت شعري اين تلك العجائبُ

وما فعلت اغلامها وفئامـــــها[٢٠] وأَرآمها أم أيـــــن تِلكَ المــراتبُ

أين بحار العِلمِ والحكم والــنَّدى واين الأكف الهاميات السوائبُ

شقَقنا على من مات منهم جُيوبنا وكان قليلاً أن تشق الترائـــبُ

فهنا الشاعر يجري مقارنة بين الماضي والحاضر ويتساءل متعجّبا أين تلك العجائب ؟ أين تلك المراتب؟ أين العلماء ، وأين اصحاب الكرم ؟ كلهم قد ذهب وانقضى ، وللتعبير عن مدى حزنه عليهم فلا يكفي شق الجيوب مستعملاً صيغة الماضي (شققنا) ، وهو يرى انه كان قليلاً بحقهم ان ((تشق عظام الصدر أو ما

ولي الترقوتين ،أو ما بين الثديين))[٢١]، وعلى هذه النبرة الحزينة المثقلة بالأم والتوجع والحسرة يستمر الشاعر حتى يستغرق القصيدة بمجملها ، فنراه يصبر نفسه قائلاً :

لساءَلتُ عَنهُمْ رسمَها فأجابني " ألا كلَّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ"

فهو يضمَّن شطر من البيت الشعري الشهير للشاعر لبيد بن ربيعة العامري في قصيدته التي قالها في رثاء النعمان بن المنذر[٢٢]:

ألا كلَّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ وكلَّ نعيم لا محالة زائلُ

في قناعة مع نفسه برضائه التام بقدر الله وقضائه .

وهكذا يستمر حتى خاتمة قصيدته بنبرة المفجع المحزون قائلاً[٢٣]:

لشكلكم أولى وأجدر بالبكا على مِثلِه حقَّاً تقُوم النوادِبُ!

فالشاعر بذلك لم يخرج عن اطار القصيدة العام والموضوع الذي بنى عليه قصيدته وهي ثنائية (الأنا والحبيبة) متمثلة بالمقارنة بين الماضي الجميل / الحبيبة والحاضر المؤلم / الأنا ، اذ استغرقت هذه الفكرة وهيمنت على بنية القصيدة بمجملها.

---

(١) شعر ابو الفضل البغدادي الاندلسي(٤٥٥ هـ) د.حلمي ابراهيم الكيلاني مجلة مؤته–الاوردن–مج٢٧–ع١–١٩٩٢ :٤٤.

(٢) ديوان ابن الحداد الاندلسي(٤٨٠ هـ) د.يوسف علي الطويل دار الفكر–دمشق١٩٩٠ :٢٤١.

[٣] ديوانه :١٠٨

[٤] سياسة الشعر ،ادونيس ،دار الأدب، بيروت، ١٩٨٥م، ص:١٦.

[٥] ديوانه :٢٦٨.

[٦] – في الشعرية ،د.كمال ابو ديب ، مؤسسة الأبحاث العربية ،بيروت /١٩٨٧م، ص:٤٧.

[٧] ينظر ديوان ابن زيدون ، شرح د يوسف عرفات ، دار الكتاب العربي بيروت ط٢ ١٤١٥هـ ١٩٩٤م : ٢٩٨-٣٠٣.

[٨] ينظر ديوانه : ٢٩٨-٣٠٣.

[٩] ينظر ديوانه : ٢٩٨-٣٠٣.

[١٠] ديوانه : ٣٠٣.

[١١] ينظر: نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس،٨ أجزاء ، بيروت ، دار صادر، ١٣٨٨هـ- ١٩٦٨م ، ج٦ ،ص: ٢١٣.

[١٢] النقد الادبي في كتاب نفح الطيب للمقري، هدى شوكه بهنام ، دار الرئد العربي،بيروت – لبنان،ط٢، ١٩٨٤م، ص:٢٩٠.

[١٣] ينظر: ديوان ابي اسحاق الالبيري(ت٤٦٠ هـ). د.محمد رضوان الداية مؤسسة الرسالة- بيروت-١٩٧٦: ٧٣

[١٤] م، ن: ٧٣.

[١٥] م ، ن : ٧٤ .

[١٦] تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة الدينوري، عبدالله بن مسلم، (تحقيق إبراهيم شمس الدين) ، بيروت: دار الكتب العلمية ٢٠٠٧م، ص ١٤٩ .

[١٧] دراسة حول ظاهرة التكرار من خلال آراء ابن رشيق النقدية في كتابه *العمدة* ،سيد رضا سليمان زاده نجفي و غلام رضا شانقي ،مجلة *بحوث في اللغة العربية وآدابها* : نصف سنوية لقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة إصفهان ،العدد ٤ (ربيع وصيف ١٤٣٢هـ. ق/١٣٩٠ هـ. ش)، ص ٥٧.

[١٨] ديوان ابي اسحاق الالبيري: ٧٤ .

[١٩] م ، ن : ٧٥ .

[٢٠]الفئام : "الجماعة من الناس" ينظر :العين(فام)٨/٤٠٥.

[٢١] ديوان ابي اسحاق الالبيري :٧٥.

[٢٢]ديوان لبيد بن ربيعة العامري اعتنى به حمدو طماس ، دار المعرفة، بيروت – لبنان ،ط١، ٢٠٠٤، ص(٨٥).

[٢٣] ديوان ابي اسحاق الالبيري: ٧٦.